

فؤاد شهاب

في هذه الأيام القاتمة افکر اکثر ما افکر في الرئيس الامير للواء فؤاد شهاب. اتذکره في زمن عز فيه الرجال، وامتہنت الكرامات، وزالت السيادة، وامسكت الازمة الاقتصادية بخناق الناس، فأصبحت الدولة مسخاً عجيناً غريباً، واصبحنا رعایاً لا مواطنين. تنداع الخواطر، فيستدعي النقیض نقیضه، بحكم طبيعة النفس ونومیسها.

الانسان

اتذکر فأفکر في فؤاد شهاب الرجل، والجندي، والرئيس الحاکم. اما الرجل فكان يتصف بأجمل ما في الرجال من اوصاف: اتفة تأبى الصغار، ولا تهاب الكبار، لا تسعى الى منصب، ولا تنهال على مغمون؛ ثم صدق مطلق يجافي مواطن النفاق والمنافقين، ووداعة لا ترتاح الى العنف، ولا تتنافى مع العزم والصلابة في اليوم العصیب. كان الامير متواضعًا، لطيفاً، عفيف اللسان، لا يكاثر في الكلام لأن الاسراف فيه يذهب بهيبة الرجال، ويقضى على وقار الحاکم، ويستزيد من هفواته. وعندما اصبح رئيساً للبلاد ظل على شأنه، لا يخاطب اللبنانيين الا في المناسبات الوطنية.

وإذا شئت ان تتحدث عن تجرده ونراحته، فحدث ما شئت، وبالغ ما شئت، فتظل دوماً دون الحقيقة. كان فؤاد شهاب اکثر من رجل منزه عن الاهواء، كان زاهداً، بل اکثر من زاهد، كان متقدساً.

مات الرئيس فؤاد شهاب على السرير الحديد الذي رقد فيه طوال حياته، وعاش في المنزل الذي سكنه ضابطاً ناشئاً، وضابطاً كبيراً، وقائداً للجيش، ورئيساً للبلاد. فما قبل بأن يسكن قصرآً عندما اصبح القصر من حقه، واساح بوجهه عن الابهة والرفاه عندما اقتربنا بمنصبه، فلا يلومه فيها لائم.

بمثل هؤلاء الرجال تبني الامم، وتفاخر الشعوب، ولنظائرهم تنحني الهمامات، وتقرع الاجراس.

كان اللواء قارئاً كبيراً. ومن الطبيعي ان يرفض رجل بأخلاقه هبات الواهبين مهما ثمنه. الا ان الكتاب، دون سواه، كان المهدية التي يرتضيها بكل سرور. ويوم قدمت اليه كتاباً عن "حياة رومل" رأيت بريق الفرح في عينيه، وقد امسك بسيرة القائد الالماني العظيم مفتبطاً شاكراً.

يقال عن العالم، صاحب الذكاء المحدود، ان علمه اكبر من عقله. ويمكننا القول عن فؤاد شهاب انه بالمنطق الشعبي السديد، وبالمطالعة المنتظمة، استعراض عمما فاته ايام الحادثة من تحصيل. كان عقله اكبر من علمه.

لم يرزق الامير اولاداً، ولو انجب البنين لحال بلا شك دون تعاطيهم الشأن العام، في اثناء توليه الاحکام. لم نشاهد خلال ولايته وجه شقيق او نسيب. وهذا كان شأن الرئيس كميل شمعون، والسبدة الفاضلة زلفا، كما ان هذا ما عمدناه في عهد الرئيس البطل الفرد نقاش، الرجل الوطني الشجاع الذي اعلن ايام الحرب بيروت مدينة مفتوحة، لتفادي قصفها، رغم تهديد الجنرال دانتز بإعدامه اذا فعل. الا ان هذا الشأن لم يكن شأن الرئيس بشارة خليل الخوري. ولكن السيدة حرمه كانت قدوة الرؤساء، فهي شقيقة اللبناني الكبير ميشال شيحا. هل نستطيع ان ننسى السيدة الكبيرة روزيت، ابنة الضابط الفرنسي الكبير؟ لا يكتمل رسم فؤاد شهاب اذا غضبناه طرف عن حرمته الفاضلة. عاشت لزوجها، وبادلها شعورها. يوم انتهت اليه الرئاسة كادت لا تشعر بالامر، وطلت على شأنها تحييا في ظله، وتؤدي العمل الاجتماعي، الخير، الصامت، بلا صخب واضواء. لم ير اللبنانيون يوماً وجهها على الشاشة، ولم يسمعوا صوتها وراء مذيع، ولا قرأوا اسمها في صحيفة، ولا شاهدواها تختال في ناد، او تتصدر مأدبة.

الجندي

كان الامير الجندي مثلاً يحتذى في الوطنية والانضباط والروح العسكرية الرفيعة. شأن كل عسكري، كان يعرف ان الاوامر تنفذ بلا تردد ولا تذمر، وتعطى بدون التباس، ولا تتخطى قدرة المسؤول او امكاناته، وعلى القائد ان يشاطر من يقود شعورهم، ويسهر عليهم، فلا يعرضهم للأخطر من دون طائل.

وعندما أصبح قائد الجيش سهر على تحويل "القناصة" جيشاً عصرياً. وقد احبه جنده جماً، وكان يبادلهم شعورهم.

كانت ابغض الامور الى فؤاد شهاب القائد تعاطي الجيش السياسية، فأقام جداراً حصيناً بين العسكريين والسياسيين، فلا تعاطى السياسة، ولا سمح لرجاله بالتدخل فيها، الا في ظرف قاهر واحد سببته في ما بعد. وعندما طلب منه الرئيس بشارة الخوري ازال الجيش الى الشارع لجبه المعارضة، رفض ذلك من دون تردد، لأن مهمته الجيش هي الدفاع عن الوطن، لا خدمة السياسيين والرؤساء واهوائهم.

الرئيس

وصل فؤاد شهاب الى رئاسة الجمهورية بل جاءت اليه صعداً، لأنه كان ارفع منها، وتأبى عليه ان يسعى اليها، فيتخذ منصبه العسكري وسيلة لبلوغها. اتهه الرئاسة في ظروف ازمة خطيرة كادت تؤدي الى نزاع اهلي.

عندما اصبح اللواء رئيساً كانت افكاره واضحة، موجزة، عن الدولة الحديثة، وما ينبغي لها من رجال ومؤسسات. كان يعرف ان لا دولة بلا رجال دولة ومؤسسات حديثة، ولا وطن بلا مواطنين صالحين. وكانت البلاد وقتئذ تفتقر الى الاثنين معاً، ولا تزال الى حد كبير.

لا ان الرئيس العتيد، المهيأ للحكم بتجربته وصفاته العسكرية، عمل على اختبار المعاونين الاداريين، وعلى مساعدة البارزين من الرجال للوصول الى الحكم. وهكذا اتت الوزارة الى الاستاذ فؤاد بطرس، ودخل السياسة في ما بعد، بفضل مواهبه الكبيرة التي ما زالت تحتاج اليها البلاد، فكان الركن الاساسي في تنفيذ مشروع دولة المؤسسات التي رمى اليها فؤاد شهاب.

وبدل من التنظير لتعتمد الامثلة الحية، استكمالاً لتبيان شخصية الامير. فلو ان فؤاد شهاب حاكم في هذه الأيام، تکان أقرب القربيين اليه اربعة: سليم الحص لعلمه الكبير ولديه رياض الحكم، وهو شبيه بشهاب طبعاً وخلقاً، اما الثالثة الاخرون فهم: السيدة الكبيرة لمaries Riad، عجب فهي ابنة ابيها العظيم، ومفخرته مع شقيقاتها لو كان حياً، وهو حي في قلوبنا. واما الثاني فلأنه اثبت انه مناضل كبير لا يخشى امراً في سبيل الحرية، ولصفاته الرفيعة علماً وقلماً ووطنية، واما الثالث فلمناهضته الضارية، العديدة، اصحاب المشاريع الارامية الى وضع اليد على ثروة البلاد، وقد نجحوا الى حد كبير. نجاح واكيم هو ضمير الشعب الكادح، وفضح الراشين والمترشين.

اصبح شعبنا المتختلف المحروم رازحا تحت اعباء دين بلغ ٤٠ مليار دولار، تخدمه سنوياً فائدة بلغت اربعة مليارات دولاراً لو كان فؤاد شهاب حاضراً اليوم، وصاحب الامر فيما، لما سمح للمرأتين باقتراف هذه الجريمة المالية الفظيعة، القاتلة، ولكن اصحاب الايدي الطويلة، المبددة، في غياب السجون.

لماذا لم يستعن فؤاد شهاب بالعميد ريمون اده، وهو من هو في دنيا الوطنية والمواهب والمؤهلات؟ اصبح اده وزيراً في مطلع العهد الشهابي، وكان خير وخير. وفي ما بعد بقليل، اقدم رجال المكتب الثاني على تأديب احد محازبيه على طريقتهم، لسوء لسان الرجل بحق رئيس الجمهورية بحسب زعمهم. انتصر العميد الغضوب لمحازبيه، وقادت قيامته، ووصل به الامر الى مخاصمة الرئيس شهاب حتى آخر عهده. ومرت الايام، ومرة في باريس فاحت العميد بأمر ذلك الخلاف بينه وبين شهاب، وصارحته ان عنف رد فعله في حينها لم يكن يتناسب مع سببه، فلم يجني، وظل صامتاً، وكان في صمته بليغاً، وهو الذي كان عنده لكل سؤال جواب.

ولا ريب في ان خلاف اده وشهاب أساء الى الوطن، فلولاه لكان البلد أفادت من تعاونهما أبداً افاده، فاجتبت أخطاء عديدة في العهد الشهابي، وتمت أمور ايجابية عديدة، ولكن انتهى عهد الامير برئاسة ريمون اده للجمهورية، فتغير تاريخ لبنان الحديث. ولكن، وفي مناسبات عدة، اتيحت الرئاسة الاولى للعميد، وكان يبعدها عنه بطنه أو باقتناعه الذي لم يقبل يوماً المسماة بما يراه حقاً لمصلحة أمتنا. كان شهاب واده من طينة واحدة، ومن جوهه واحد، وقد خلق للاتفاق والتلاحم، في لغابة الاقدار، ويا لسوء طالع لبنان!

بعدما استقام لفؤاد شهاب أمر اختيار الرجال، أخذ يمارس صلاحيات الرئاسة في التوجيه بذهنية رجل الدولة الأصيل. وجه الدولة الى بناء المؤسسات، فكان مجلس الخدمة المدنية وديوان المحاسبة، والتفتیش المركزي، وبقية مستلزمات الدولة المتطرفة. جاء بالخبراء العالميين ينصحون ويرشدون، ويضعون التقارير. وقد ساد الأمن في ايامه، على أكمل وجه. وبينما كان الراعي يسهر على الرعية بذهنية الأدب الصالح، حصل الانقلاب السوري القومي الاجتماعي، فانقلب الاتجاهات والمقاييس في بعض جوانبها. اضطر فؤاد شهاب الى الاقدام على أيضض المحرمات لديه، وهو اقحام الجيش في السياسة. حينئذ، ساد الأمن المخابرات، وذاق اللبنانيون للمرة الأولى هذه الكأس المريرة التي لا يعلوها في المرارة الا حكم المليشيات. شاء قدرنا ان نتجرع مرتين، وعلى التوالي هاتين الكأسين المسمومتين، لا يتبعهما عشرون عاماً. طعنـتـ الحرـياتـ العـامـةـ فيـ صـمـيمـهـاـ،ـ وـ اـمـتـهـنـتـ حقوقـ الانـسانـ،ـ وـ سـيـطـرـ الـارـهـابـ الرـسـيـ.

وهكذا تشوّه وجه فؤاد شهاب والبلاد على أيدي أناس ضمّوا الغباء الى شهوة الاستبداد. وهل للمخابرات حدود عندما تطلق يداتها؟

ولكن كيف سمح فؤاد شهاب بهذه الانحرافات الخطيرة عن الدستور والقانون، وهو من هو، ما وصفناه؟ سؤال يبعث على الحيرة والاستغراب. بعدما اعتزل الامير الحكم، حملت اليه حيرتي واستغرابي، فأجابني بكل هدوء وبالحرف الواحد: "لم يكن باستطاعتي ان أضع عسكرياً وراء كل لبناني". هذا جواب يفني عن كل تعليق. وقد ذكرت هذه الواقع في كتابي: "شيء من كل شيء".

ويقول نسيبي وصديق فؤاد شهاب الحميم الابن اسطوان الحداد ان الرجل اسر اليه يوماً انه كان في حاجة الى المكتب الثاني لتوطيد الأمان، وحماية الحدود، "وقد بدأ الغرباء يتسللون الى بلادنا من الخارج، ويتمرسون ويعيثون فساداً في الداخل". وقد جاء انقلاب القوميين بزيد النار تأججاً.

ومهما كان من تجاوزات المكتب الثاني، ومهما كان تفاصيلنا بالخارج. كان جمال عبد الناصر في ذروة قوته ومجده وقتئذ. خطبة منه وراء مذيع تسقط حكومة وتؤتي بحكومة الجماهير العربية تغضبه لغضبه من دون ان تسأله لماذا اغضبه ومنْ غضب. فؤاد شهاب لم يكن هياجاً عندما يتصل الامر بالكرامة الوطنية. كان نظير عبد الناصر في هذه الناحية. من اجل هذا، كان رئيس مصر وسوريا في عز سلطنته، يحترم الامير اللبناني كثيراً كما قال لي الرجل الأول في الجمهورية العربية المتحدة بعد عبد الناصر. ولما اراد الرجال اللقاء، تم اجتماعه اللند على القاهرة، ولا قصد دمشق في أيام الوحدة. ويقول الظرف اللبناني ان الرئيس اللبناني جلس في اثناء اجتماعه وبعد الناصر في ارض لبنان، وجلس رئيس الجمهورية العربية المتحدة في أرض سوريا، وكانت تفصل بينهما طاولة عريضة، منعاً لآي التباس.

وعندما نزل الجيش الاميري على شواطئ لبنان، عقب الثورة العراقية، ومن دون استئذان السلطة اللبنانية، ثارت كرامة فؤاد شهاب الوطنية، فأمر بتعينة المدفعية، وكاد يأمر بقص انتشاري للقوات الاميركية!

ومهما كان من شأن المخابرات في أيام شهاب، فإنه لم يخطر قط في باله ان يستمر في الحكم من طريقها. وعندما شارفت ولايته النهاية كان بامكانه التجديد على أهون سبيل، لأن مجلس النواب في أكثرية الساحقة يؤيده، والجيش في يده، محية لا اكراهاً. رفض في البدء التجديد جازماً، ثم رضي بان يفك في الامر، بعد الحاج، على ان يقوم بعض المشاورات، وعلى ان يلقي اجماعاً. غير ان احد السياسيين الاكثر افاده من عهده سياسياً، تذكر له ولأفضلاته عليه. ومن دون تردد ومرارة، أقدم الامير على ما كان يتمنى بكل جوارحه، أي الاعتزال النهائي.

كان ضيق الصدر بالخصوصيات والنزاعات. هذا فؤاد شهاب الرجل والجندي والرئيس في ايجابياته وسلبياته، كما عرفته وبان لي من أقواله وأعماله. لن أترحّم عليه، لأن ذكره لا تزال حية، وستبقى طويلاً في خاطرنا. ان موت الذكرى هو الموت. هل أفيد ابناء بلادي في ما كتبته؟ هذا متنهى الاماني. ولكنك اذا غاب عنك الشرف، وكتت في جوهرك نازعاً الى العمالة، فلن ذكرى الامير لن تجديك. آمنت دودة، فكيف تطير ازحفاً

فؤاد توفيق المشعلاني